الثورة الحسينية

دراسة في أبعادها السياسية والعسكرية وأسباب اختيار الكوفة منطلقا للتحرك ودلالات الرسائل الكوفية للإمام الحسين (عليه السلام)

محمد حسن دخيل*

تمـهيد :

لم تكن ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) ذات بعد مكاني وزماني محددين فحسب ، بل امتدت آثارها ونتائجها وتداعياتها على أكثر من صعيد ومستوى . إذ لم تمضِ على شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) مدة وجيزة حتى انطلقت الثورات على الحكم الأموي في مختلف بقاع العالم الإسلامي ، تقتبس منه ، وتهتدي بهديه ، وتسير علـــى منهاجه .

وللباحثين إسهاماتهم ودراساتهم وتحليلاتهم في أسباب الثورة الحسينية ونتائجها ، انطلاقاً من عالمية هذه الثورة وإنسانيتها وما تثيره في النفوس من عواطف وأحاسيس تفيض أســىً ونقمــة علـــى الظلـــم والطغيـــان .

تعالج هذه الدراسة جملة من الإشكاليات المهمة في ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) منها ما يرتبط بسبب اختياره للكوفة منطلقا لتحركه وملابسات التراجع الذي أصابها والبواعث التي ساهمت في ذلك .

وثمة فرضية يتبناها الباحث ، تفيد أن الكوفة كانت مهيأة لاستقبال الإمام الحسين (عليه السلام) كونها قاعدة لأنصاره وأتباعه ، وبالتالي بعث أهلها رسائلهم له ، وهم صادقون في رغبتهم بمؤازرته ، لكن المفاجآت التي حصلت جراء وصول عبيد الله بن زياد الى الكوفة واتخاذه الإجراءات الحاسمة وقبضته الحديدية هي التي زعزعت ركائز حركة المعارضة في الكوفة .

* مدرس دكتور في كلية القانون والعلوم السياسية / جامعة الكوفة .

ورغم حصول معركة الطف غير المتكافئة في العدة والعديد ، فإن ثمة وسائل وأدوات سياسية قد استخدمت ، وطرق وآليات عسكرية قد اعتمدت ، وقد أدت الى نتائج وغايات وردود أفعال على أكثر من صعيد ومستوى

ورأينا أن ندلو بدلونا في هذا المضمار ، عبر السعي لحل هذه الإشكاليات واثبات هذه الفرضيات محاولين إبراز صور رائعة في جوانب من هذه النهضة المباركة من خلال ما قام به الإمام الحسين (عليه السلام) وأنصاره في ساحات الميدان ، ساعين لإيضاح بعض معالم ثورة أبي الأحرار الخالدة

أولا : موقف الإمام الحسين (عليه السلام) من تولي يزيد الخلافة :

سعى معاوية بن أبي سفيان لتهيئة الظروف لتولي ابنه يزيد مقاليد الحكم ، رغم وجود عقبات رئيسية تعترض هذا المسعى ، ينطلق أهمها في شخصية يزيد ، الذي وصف بأنه كان ((صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب)) .[١]

وذكرت بعض مواصفاته التي أثرت عيله ، فمنها أنه كان في حداثته صاحب شراب ، يأخذ مأخذ الأحداث ، فأحس معاوية بذلك ، فأحب أن يعظهُ برفق ، فقال ((يابني ، ما أقدركَ على أن تصل الى حاجتكَ من غير تهتك يُذهِبُ بمروءتك وقدرك ، وتشمت بك عدوك ، ويسيء بك صديقك)) .[٢]

إذا ً، يبدو من خلال ما ورد ، إن معاوية شعر بالمخاطر التي تترتب على سلوك يزيد ، ابنه ، وخصوصا ً أنه كان يهيئهُ لتولي المسؤولية من بعدهِ.

إن مهمة معاوية في اخذ البيعة له ، وفقا ً لما سبق ، كانت صعبة ((إذ لم يزل يروّض الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويعطي الأقارب ويداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس)) [٣]

وكانت هذه الخطوة من أهم أسباب الانتكاسات التي أصابت الأمويين ، وقد اعترف معاوية مبكرا ً بذلك ، إذ قال ((لولا هواي في يزيد لأبصرتُ رشدي وعرفتُ قصدي)) [٤]

وقد تنبأ معاوية نفسه ، لخطورة هذا الأمر ، واصفا ً من سيتولى الأمور بعده قائلا : ((..... وإني وليتكم ، ولن يليكم أحد بعدي خير مني ، وانما يليكم من هو شرٌ مني ، كما كان من وليكم قبلي خيرا ً مني)). [٥]

بذل معاوية في مسعاه هذا ، جهوداً حثيثة في تمهيد الأمور لابنه يزيد ، لأن شعوراً كان ينتابه من مخاطر تحرك مرتقب للإمام الحسين (عليه السلام) وبخاصة إذا حصل تنسيق ما بينه وبين أهل الكوفة الذين كانوا يتحينون الفرص لتغيير النظام القائم .

وقد استعمل معاوية أسلوب التهديد مع خصومه ، إذ ورد إن يزيد بن المقنع العذري قام وقال بعد جدل أثير حول صلاحية يزيد للخلافة أيام معاوية : ((هذا أمير المؤمنين ، وأشار الى معاوية ، فإن هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، ومن أبى فهذا، وأشار الى سيفه، فقال معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء)) .[٦]

رأى الإمام الحسين (عليه السلام) أن الوضع آخذٌ بالتردي ، ويزيد ليس كأبيه معاوية ، بل إن هناك صعوبة بالغة في إقرار هذا الأمر ، وليس بالإمكان احتمال ما سينتج عنه من مضاعفات ونتائج فظيعة على المسلمين .

١ - الإمام الحسين (عليه السلام) في المدينة المنورة :

إن أوامر يزيد للوليد بن عتبة ، والي المدينة ، كانت تتسم بالشدة ، حيث كتب إليه : ((أما بعد ، فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا)). [٧]

لذلك توجه الإمام بكلامه الى والي المدينة بقوله : ((أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ، ومحل الرحمة ، بنا فتح الله وبنا يختم ، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر ، قاتل النفس المحترمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة)).[٨]

إن هذا الخطاب فيه وصف لكلا الطرفين ، وبالتالي عدم تأهل يزيد لتولي شؤون المسلمين وأمورهم ، وهو قد رفع الغطاء الشرعي عن خلافته .

من هنا ، نتلمس في الدعاء الذي قرأه الإمام الحسين (عليه السلام) أمام قبر جده المصطفى (صلى الله عليه وآله) عندما زارهُ مودعاً إياه ، مدى حرصه على الإصلاح وسعيه لتغيير المنكر الذي أصاب الأمة الإسلامية جراء تولي يزيد سدة المسؤولية ومما ورد فيه : ((اللهم هذا قبر نبيك محمد ، وأنا ابن بنت نبيك ، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت . اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر . وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه ، إلا ما اخترت لي ما هو لك رضا ولرسولك رضا)) . [٩]

خرج الإمام الحسين (عليه السلام) إذاً ، من المدينة المنورة بعد أن نجا من الوالي ، وهو يخشى أن يبعث الأخير في طلبه قوة ترده واختار مكة المكرمة ؛ لأن فيها حركة معارضة قوية للأمويين كما إن عواطف قسم كبير من أهالي مكة مع الإمام الحسين (عليه السلام) .

٢ - الإمام الحسين (عليه السلام) في مكة المكرمة :

نزل الإمام الحسين (عليه السلام) في دار العباس بن عبد المطلب في مكة للدلالة على مصارحة الناس بثورته ، ورفضه البقاء بعيداً عن الأضواء كما نُصح بذلك .

بقي الإمام الحسين (عليه السلام) في مكة المكرمة يترقب الأوضاع ويراقب التطورات ، ويتصل بالقيادات ، ويلتقي بوفود الحج . والناس تفد إليه ، وهو يستطلع الأخبار وهم بدورهم يستخبرون منه أهدافه . ((فعكف الناس على الحسين يفدون إليه ويقدمون عليه ، ويجلسون حواليه ، ويستمعون كلامه ، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد)). [١٠]

يؤكد ابن أعثم إن حالة من الارتياح كانت في مكة ، إذ لما ((دخل الحسين الى مكة ففرح به أهلها فرحاً شديداً ، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية)) . [١١]

لذا ، فإن ابتعاد الإمام الحسين (عليه السلام) عن المدينة المنورة أتاح له فرصة اللقاء مع مختلف قيادات العالم الإسلامي بعيداً عن ضغوطات والي المدينة ، من هنا ، يمكن اعتبار مكة محطة للنهضة وليست مركزاً لتأسيس ثورة .

إن حالة من الترقب والحذر كانت تعيشها الأمة الإسلامية بعد وفاة معاوية ، حيث إن حجاج بيت الله الحرام ، وهم من كل بقاع العالم الإسلامي ، كما تصف الروايات التاريخية ، كانوا يعيشون هذا الهاجس ، إذ ((عكف الناس بمكة يفدون إليه – أي الحسين – ويقدمون عليه ، ويجلسون حواليه ، ويسمعون كلامه ، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد)). [١٢]

بقي الإمام الحسين (عليه السلام) ما يزيد على الأربعة أشهر وتحديداً (١٢٥) يوماً ، وهي [١٣] من أطول مراحل الثورة ، في مكة يستعرض مع زائريه الشؤون العامة للمسلمين ، وآفاق الحل ، وكيفية الخروج من هذه الأزمة . وبعد أن وصلته رسالة مسلم بن عقيل التي تحثه على الإسراع بالمجيء الى الكوفة ، توجه نحو العراق .

وللدلالة على ما نفترضه في هذه الدراسة من أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يدرس الوضع من كل جوانبه وكان يتخذ قراراته بناءً على المعطيات التي تتجمع لديه إذ أنه التقى بعبد الله بن مطيع استقبل الحسين ، وقال له : جعلتُ فداك ، أين تريد ؟ قال : ((أما الآن فإني أريد مكة ، وأما بعدها فإني أستخير الله)).[١٤] وفي ذلك ، إشارة الى إن ليس غاية الإمام الحسين (عليه السلام) الإقامة في مكة ، ولا الحج ، وإنما اتخذها محطة من محطات ثورته ، ومرحلة يستقرىء فيها الأوضاع العامة .

أما مسألة من نصح الإمام الحسين (عليه السلام) بعدم التوجه الى العراق ، فإن إدراك هؤلاء للأمور العامة وللتطورات المتسارعة ومتابعتهم للأحداث ليس مثل قابلية الإمام ، ولم يكن لديهم المعطيات التي تكونت لديه .

لكن ما ساهم في الإسراع بخروج الإمام الحسين (عليه السلام) عن مكة محاوله اغتياله من قبل الأمويين ، وعندما وافتهُ رسائل أهل الكوفة معلنةً الرغبة في تغيير النظام واستعداد مرسليها للبيعة له وقتال أعدائه سعى جاهداً للذهاب الى العراق وتحديداً الكوفة .

وفي مكة المكرمة ، كتب الإمام الحسين (عليه السلام) الى بني هاشم ((من لحق بي منكم استشهد)) ، وهي من أروع كلمات الإمام ، فهو مطابق لقول أبيه ، الإمام علي (عليه السلام) ، ((من أحبنا فليستعد للفقر جلباباً)) إن مفاد كلام الإمام الحسين (عليه السلام) أننا نريد أناساً أقوياء يستعان بهم في مواجهة الأحداث ، وهو لا يريد تكثير السواد بل ، يشير بالتالي الى إن النصر ليس مضموناً .

هناك جملة من الأسباب التي دعت الإمام الحسين (عليه السلام) لإعلان ثورته ، منها ما يتصل بواقع الوضع السياسي القائم آنذاك الذي كان يسوده بعض الضعف والتردد ، ولا أدل على ذلك من موقف الوليد بن عتبه – والي المدينة – مع الإمام ، الذي قال لمروان بن الحكم الذي أشار عليه بقتل الإمام الحسين (عليه السلام) : ((والله إني لأظن إمرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة)) [١٥] ، والموقف نفسه أبداه عمرو بن سعيد بن العاص – والي مكة – الذي يبعث برسالة للإمام الحسين (عليه السلام) بعد مغادرته إياها طالباً منه البقاء في مكة ويمنيه بالصلة والأمان . ونلاحظ الأمر نفسه قد تكرر مع النعمان بن بشير – والي الكوفة – الذي اتخذ موقفاً مهادناً من حركة مسلم بن عقيل في الكوفة .

ثانيا : رسائل أهل الكوفة : الدلالات والأهداف

إن الرسائل التي وجهت الى الإمام الحسين (عليه السلام) من قبل الكوفيين ، تعود الى مرحلة مبكرة من تاريخ النهضة الحسينية ،وبالتحديد الى فترة حكم معاوية بن أبي سفيان ، حيث ورد إن ممن كتبَ للإمام

الحسين (عليه السلام) ، جعدة بن أبي هبيرة المخزومي ، وقد جاء في رسالته ((أما بعد ، فأن من قبلنا من شيعتك متطلعة أنفسهم إليك ولا يعدلون بك أحداً ، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن أخيك في الحرب . وعرفوك باللين لأوليائك والغلظة على أعدائك والشدة في أمر الله . فأن كنت تحب أن تطلب هذا الأمر فأقدم علينا وطنا أنفسنا على الموت معك ، والسلام)) .

فأجابه الإمام الحسين (عليه السلام) بكتاب عممـــه الى جميع أهل الكوفة ، جاء فيه ((أما أخي فأني أرجوا أن يكون الله قد وفقهُ وسددهُ ، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذاك ، فالصقوا رحمكم الله بالأرض وأمكنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً فإن يحدث الله به حدثاً وأنا حي كتبتُ إليكم برأيي والسلام)) . (١٦)

وعلى صعيد أخر يتبين من خلال الكتاب الذي أرسله أهل الكوفة الى الإمام الحسين (عليه السلام) بعد تلقيهم نبأ موت معاوية ، وقد صوروا فيه الحالة العامة التي وصلتها الأمة جراء المظالم ، وقد ورد فيه ((..... الحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبعداً له كما بعدت ثمود .....)) . (١٧)

مما يجدر ملاحظته ، في هذا الصدد ، إن الكوفة هي التي بادرت الى الكتابة الى الإمام الحسين (عليه السلام) وحثهِ على المجيء إليها ، فيما لم تصله أية رسائل من أي بلد آخر ، وهي بالتالي ، المدينة الوحيدة التي أعلنت رفضها لنظام الحكم في دمشق ، وهي القاعدة المهيأة لانطلاقة الإمام الحسين (عليه السلام).

من الملاحظ ، كذلك إن الكتاب الأخير الذي وصل للإمام الحسين (عليه السلام) كان من أركان السلطة الأموية في الكوفة ، وكان منهم : شبث بن ربعي ، وحجار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث ، ويزيد بن رويم ، وعزرة بن قيس ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي وغيرهم ، وفي ذلك دلالة على رغبة هؤلاء في حجز مقاعد لهم في السلطة الجديدة المنتظرة بعد انهيار حكم الأمويين في الكوفة ، وتوقع انتصار الحركة المعارضة المتمثلة بالإمام الحسين (عليه السلام) وسفيره الى الكوفة مسلم بن عقيل .

وتوافدت عليه كتب أهل الكوفـة ، وتكاثـرت حتـى ورد عليـه فـي يوم واحد ((ستمائة كتاب)) واجتمع عنده في نوب متفرقة ((اثنا عشر ألف كتاب)) وهو مع ذلك يتأنى ولا يجيبهم . (١٨)

أما موقف الإمام الحسين (عليه السلام) من الكتب والرسل بعد أن ((تلاقت الرسائل كلها عندهُ)) حيث سمع من كل الأطراف وقد ((قرأ الكتب والرسائل)) اطلع على مضمون هذه الرسائل ((وسأل الرسل عن أمر الناس)) ، عبر الاستفهام والسؤال عن آراء الناس والمجتمع .

وثمة ملاحظة ، تستوقف المتتبع ، وهي ظاهرة الرسائل بهذه الأعداد الكبيرة وبهذا التنوع ومن مختلف طبقات المجتمع ، وهي مؤشر على الواقع المرير في الكوفة آنذاك ، إضافة الى الرغبة العارمة بتغيير مسار الحكم .

وقد جاء في كتابه عليه السلام الذي كتبه للكوفيين وقد أرسله مع مسلم بن عقيل : ((وقد فهمتُ كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلكم : انه ليس علينا إمام . فأقبل ، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق . واني باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، فإن كتبَ إليَّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجا والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، وقرأتُ في كتبكم ، أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله .....)) . [١٩]

يستنتج ، من هذا الكتاب ، أن الإمام الحسين (عليه السلام) قد تهيأ للأمر ، ودرس الأوضاع من كل جوانبها ، وهو قد اختار مراحل تحركه ، وأراد الاطمئنان الى صحة المعلومات الواردة إليه ، عبر إرساله موفداً من قبله للكوفة لاستطلاع الموقف ، وبناءً على تقييم سفيرهِ سيتخذ القرار بالقدوم إليهم من عدمه .

ثالثا : الإمام الحسين (عليه السلام) والكوفة : إشكالية العلاقة :

مورست ضغوط هائلة من قبل معاوية على أهل الكوفة ، فكان الولاة يظلمون الناس ، ويدوسون كرامات الموالين لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، ولا أدل على ذلك من وصايا معاوية للمغيرة بن شعبة ، عندما دعاه وهو يريد أن يستعمله على الكوفة ، فقال له في كلامه : ((وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك ، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة واحدة : لا تترك شتم علي وذمه)) .[٢٠]

وهناك مؤشرات ، تفيد إن أهل الكوفة كانوا يسعون للانقضاض على معاوية ؛ الأمر الذي يدل على إن علاقة أهل الكوفة بالإمام الحسين (عليه السلام) وسعيهم لتغيير حكم الأمويين ليس وليد الساعة . إذ يروي الدينوري ((أتى نفر من الشيعة حسيناً في المدينة ، فأخبروه بما حدث لحجر وأصحابه من قتل وسجن وتشريد ، فشق ذلك عليه ، وأقام ذلك النفر في المدينة يختلفون إليه ، ونعى الخبر الى والي المدينة

مروان بن الحكم فكتب الى معاوية : إن رجالا من أهل العراق قدموا على الحسين بن علي وهو مقيمون عنده يختلفون إليه ، فأكتب إليَّ بالذي ترى)) .[٢١]

ويذكر المؤرخون الحالة العامة لأهل الكوفة آنذاك ، حيث كان الوضع مهيئاً لقيام انتفاضة شعبية بسبب ما لحق مدينتهم من عسف وجور واضطهاد ؛ إذ أنَ ((أول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد))[٢٢] و ((كان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة ، فاستعمل (معاوية) عليهم زياد)) .[٢٣]

إضافة الى ما سبق ، فإن معاوية يعلم أن مصدر الاضطراب هم أهل العراق ، وتحديداً أهل الكوفة وليس البصرة ، لذا كتب كتاباً بتولية عبيد الله بن زياد على الكوفة ، لكن مات قبل تنفيذه ، هذا ما أوضحه سرجون ، مستشار معاوية ، الذي قال ليزيد عندما بلغهما خروج الإمام الحسين (عليه السلام) الى العراق ((أرأيتَ معاوية لو نشر لك ، أكنت آخذاً برأيه ؟ قال : نعم فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة . فقال : هذا رأي معاوية ، ومات وقد أمر بهذا الكتاب ، فأخذ برأيه)) .[٢٤]

يثار هنا ، بعض التساؤل عن مدى وفاء أهل الكوفة للإمام الحسين (عليه السلام) وما الأسباب الحقيقية لتدهور الأوضاع وانقلابها غداة تحرك الإمام الحسين (عليه السلام) وانتقاله من مكة الى العراق ؟

للإجابة على ذلك ، نورد إن الجمهور العام في الكوفة كان شيعياً ، مخلصاً وهم من كتب للإمام الحسين (عليه السلام) يستحثونه للإسراع في المجيء الى الكوفة ، وهو عليه السلام يدرس الموقف وقد ((توافدت عليه بعد ذلك كتب أهل الكوفة وتكاثرت ، حتى ورد عليه في يوم واحد ستمائة كتاب ، واجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب ، وهو مع ذلك يتأنى ولا يجيبهم))[٢٥]

إن أغلب المؤشرات تدل على إن الكوفيين صادقون في طلبهم ، وهم عاشوا مع الإمام علي (عليه السلام) خمس سنوات وتشربوا الروح الشيعية . لذلك بعث الإمام الحسين (عليه السلام) مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، ابن عمه ، فقال له ((سر الى الكوفة ، فانظروا الى ما كتبوا به إليَّ . فإن كان حقاً خرجنا إليهم))[٢٦]

وفعلا ، خرج إليهم ؛ لأن حياته كانت مهددة في مكة في كل ساعة[٢٧] ، وهو لم يتردد بعد رسالة شخص خبير وثقة وهو مسلم بن عقيل يخبره بنتائج إيجابية من استطلاعه أمور الثائرين ، إذ يقول : ((إن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فان الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسلام))[٢٨]

إن من يسيطر على الكوفة يتزعم العراق ، لأنه ليس في العراق آنذاك جيش أموي محترف ، ولكن ذلك لا يعني إن الأمور أصبحت مسيطراً عليها تماماً والدليل على ذلك وجود جماعات من الأمويين في الكوفة نبهت يزيد الى خطورة الوضع ، كما إن هناك بعض الانتهازيين ، ومنهم : شبث بن ربعي ، وحجار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث ، ويزيد بن رويم ، وعزرة بن قيس ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي وغيرهم إذ أن هؤلاء لما رأوا الأمور تتجه نحو سقوط الحكم الأموي كتبوا للإمام الحسين (عليه السلام) ، وهؤلاء هم الذين كتبوا للإمام الحسين (عليه السلام) ثم خرجوا لقتاله لاحقا.

هناك من ينطلق من قول الفرزدق ((قلوب الناس معكم وسيوفهم مع بني أمية)) [٢٩] ، ليشير الى انقلاب الكوفيين المفاجئ ، ولكن قراءة متأنية للأحداث تفيد إن هذا الكلام يتعلق بجمهور الناس وليس الشيعة الذين قلوبهم وسيوفهم مع الإمام الحسين (عليه السلام) ، ولأن الحسين لم يعتمد على الشيعة فحسب .

مما يلاحظ ، إن المسار العام لتوجهات الكوفيين هي في الانقضاض على الحكم الأموي ، ولكن هذه الحركة كان ينقصها القائد ؛ الأمر الذي دل عليه الكتاب الأول الذي أرسله الكوفيون الى الإمام الحسين (عليه السلام) وفيه ((ولو قد بلغنا إنك قد أقبلت إلينا أخرجناه (أي النعمان بن بشير – والي الكوفة) حتى نلحقه بالشام إن شاء الله)) [٣٠]

ويمكن الاستنتاج من خلال المحاورة التي جرت مع الإمام الحسين (عليه السلام) أثناء مسيره الى العراق لما بلغه مقتل مسلم بن عقيل فقال له أصحابه ، ((والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة كان الناس إليك أسرع)) [٣١] إن إمكانية إحراز النصر قائمة .

ولقد قُدِّر للإمام الحسين (عليه السلام) أن يصل الى الكوفة لتغير مسار الأحداث ولانقلبت موازين القوى ، من هنا ، كانت خشية عبيد الله بن زياد من دخول الإمام الحسين (عليه السلام) الى الكوفة ، ليس من خلال ما يرافقه من أعداد من الجند ، بل لما له من التأثير في نفوس أهل الكوفة .

إن الأرضية كانت مهيأة في الكوفة للانقضاض على الحكم الأموي في ظل سلطة معاوية ، ولا أدل على ذلك من قول المسيب بن نجبة الفزاري وسليمان بن صرد الخزاعي للإمام الحسن (عليه السلام) : ((ما ينقضي تعجبنا منك ، بايعت معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من الكوفة سوى أهل البصرة والحجاز)) [٣٢] ، واستمرت هذه الجذوة مشتعلة الى حين وفاة معاوية ، وتولي ابنه يزيد مقاليد الأمور في دمشق .

وللدلالة على سيطرة مسلم بن عقيل ، مبعوث الحسين الى الكوفة ، إن عبد الله بن مسلم الحضرمي كتب كتاباً الى يزيد بن معاوية جاء فيه ((أما بعد ، فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة ، فبايعته الشيعة للحسين بن علي ، فإن كان لك في الكوفة حاجة ، فأبعث إليها رجلا قوياً ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك في عدوك ، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف ، أو هو يتضعف)). [٣٣] وفي هذه الرسالة دلالة واضحة على انهيار الوضع في الكوفة لصالح الإمام الحسين (عليه السلام) .

وكمؤشر على هيمنة مسلم بن عقيل على الكوفة ما أورده المؤرخون أنه لما وصلها ، استقبله أهلها أحسن استقبال وهو يقرأ كتاب الإمام الحسين (عليه السلام) فيبكون ، ويسارعون الى مبايعته للحسين (عليه السلام) حتى بلغ سجل المبايعين ثمانية عشر ألفاً. [٣٤]

وللدلالة على إمكانية الاستحواذ على مقاليد السلطة في العراق ما قاله شريك بن الأعور لمسلم بن عقيل : ((إن هذا الفاجر (عبيد الله بن زياد) عائدي العشية ، فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله ثم اقعد في القصر ، ليس أحد يحول بينك وبينه . فان برئت من وجعي هذا أيامي هذه ، سرت الى البصرة وكفيتك أمرها)) [٣٥]

وفي هذا الصدد ، فإن الاستعدادات للمواجهة كانت على قدم وساق ، حيث ورد في ترجمة أبي ثمامة الصائدي ، أحد أنصار الإمام الحسين (عليه السلام) أنه كان ((يشتري لهم السلاح ، وكان به بصيراً ، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة)). [٣٦]

ونعثر في النصوص التي تصف الحالة العامة لأنصار مسلم بن عقيل بعد مجيء عبيد الله بن زياد الى الكوفة وتوليه شؤونها ، وإعلانه الأحكام العرفية فيها ، ما يفيد القوة الضاربة التي كانت مع مسلم بن عقيل التي توجهت لمحاصرة قصر الإمارة ، : ((الحذر الحذر ، هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه)) ، ((نشروا الأعلام وشهروا السيوف)) ، ((وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه ، ويلعنون أباه)) [٣٧]

فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وغلق الأبواب ، وقال له كثير بن شهاب : ((أصلح الله الأمير ، معك في القصر ناس كثير من أشراف الناس ، ومن شرطتك ، وأهل بيتك ومواليك فأخرج بنا إليهم ، فأبى عبيد الله)) [٣٨]

رابعا : ملابسات التراجـــع فـــي الكـوفـــة :

لو أردنا أن نُلمَّ بظروف التقهقر الذي حل بالساحة الكوفية عشية وصول الإمام الحسين (عليه السلام) الى العراق ، لتبين لدينا إن الأوضاع السائدة في العراق كانت غير منضبطة ، فإن الزبير قد أعلن اعتراضه على السلطة في الحجاز، وإن الأمويين أنفسهم حدث عندهم انقسام .

ثم إن الكوفيين أنفسهم لم يتوقعوا مجيء عبيد الله بن زياد الى مدينتهم . فالنعمان بن بشير ، والي الكوفة آنذاك ، كان ضعيفاً . وقد فوجئوا بوصول ابن زياد ، وهو بالحال ، اتخذ إجراءات عنيفة . علماً إن بسطاء الناس عندما رأوه مقبلا اعتقدوا للوهلة ، أنه الإمام الحسين (عليه السلام) .

إن مجرد وجود عبيد الله بن زياد أثر في معنويات الناس . وهو اتخذ إجراءات صارمة بحق الثوار ، منها : إعلان الأحكام العرفية ، وإغلاق مداخل الكوفة ، واتخاذ تدابير عسكرية حاسمة ، منع الدخول والخروج من الكوفة حسماً للمفاجآت ((وقد عمد ابن زياد بأخذ ما بين واقصة الى طريق الشام الى طريق البصرة ، فلا يَدَعُونَ أحداً يلج ولا أحداً يخرج)) [٣٩]

وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن هناك توحيد في الرأي لمواجهة التطورات المتسارعة من جانب الثائرين ، فقد كانت مهمة مسلم بن عقيل استطلاعية ، ولكن بعد انقلاب الأمور ، فقد خرج الألوف مع مسلم بن عقيل ، وكان بإمكانهم إلحاق الهزيمة بابن زياد ولكن الأقدار لا تغالب وتضعضعت المعنويات .

وهناك أساليب عدة ، اعتمدت لإجهاض حركة الثائرين ، منها الترغيب والترهيب ، إذ ((بعث عبيد الله الى الأشراف فجمعهم إليه ثم قال : أشرفوا على الناس ، فمنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم)) . [٤٠]

وفعلا ، اعتمد ابن زياد أسلوب البطش والتنكيل ، فأتى بهاني بن عروة المرادي ، وحبسه وعذبه ، وحتى إن عشيرته لم تستطع حمايته ؛ لأن ابن زياد تمكن من شراء ذمة ابن عمه عمرو بن الحجاج الذي بعثه لاحقاً لحرب الحسين (عليه السلام) .

قال ابن سعـد : وجعل الرجـل والرجـلان والثـلاثـة يتسللـون الـــى الإمام الحسين (عليه السلام) من الكوفة فبلغ ذلك عبيد الله فخرج وعسكر بالنخيلة ، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث وأخذ الناس بالخروج الى النخيلة وضبط الجسر فلم يترك أحداً يجوزه [٤١]

وروى البلاذري ، قال : ووضع ابن زياد المناظر [٤٢] على الكوفة لئلا يجوز أحد من المعسكر مخافة لأن يلحق الحسين مغيثاً له ورتب المسالح [٤٣] حولها وجعل على حرس الكوفة زحر بن قيس الجعفي . [٤٤]

وثمة أمر آخر ، يلاحظ ، في هذا المجال ،وهو إن هناك جمهوراً من دون قيادات ، فبعضهم قد سجن وبعضهم الآخر لديه مصالح ولم تحدد ساعة الصفر لانطلاق الثورة ؛ لأن المسلمين الشيعة هم على قسمين :

الأول : غيورون ولكن غير مجازفين .
الثاني : ثوريون ولكن قتل قسم منهم وسجن آخرون

ومن هنا ، فإن إعلان الثورة كان قد حصل قبل اكتمال عناصرها ومقتضياتها أدى الى النتائج غير المتوقعة ، إضافة الى عنصر المفاجأة .

وثمة دور هام أدته فئة من المتنفذين وهم الأشراف وقد قال مجمع بن عبد الله العائذي للإمام الحسين (عليه السلام) يصف دور هذه الطبقة : ((أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم ، ملئت غرائرهم يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم ، فهم إلب واحد عليك)) . [٤٥]

وهذه قراءة للحالة العامة في الكوفة آنذاك ، وهي تشير الى فئة (الأشراف) ودورها في المجتمع .

أشرف علينا الأشراف ، فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس أن تجب ، فقال : ((أيها الناس ألحقوا بأهليكم ، ولا تعجلوا الشر ، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل ، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت .....)) [٤٦]

إذن ، كانت خطة ابن زياد ((أشرفوا على الناس ، فنموا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم)) [٤٧]

ويجب عدم إغفال دور جملة من أركان السلطة وركائزها ، ومنهم محمد بن الأشعث ، شبث بن ربعي ، وحجار بن أبجر وغيرهم ، حيث قام هؤلاء بنشاط مضاد لحركة مسلم ، وساهموا بشكل فاعل في تخذيل الناس عنه ، وتخويفهم من الالتحاق به أو نصرته .

الى ذلك ، ينبغي عدم إغفال فئات في المجتمع ، تتسم بالتردد ، وعدم قدرتها على اتخاذ المواقف المصيرية ، ومن ذلك ما حدث سعيد بن عبيدة : ((إن أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التل يبكون ويقولون : اللهم أنزل نصرك ، فقال : فقلتُ يا أعداء الله ألا تنزلون فتنصرونه)) (٤٨)

وقد قال الحجاج بن علي ، فقلت لمحمد بن بشر : ((فهل كان منك أنت قول ، فقال : إن كنت لأحب أن يعز الله أصحابي بالظفر ، وما كنت لأحب أن أقتل ، وكرهت أن أكذب)) (٤٩)

لذلك ، ينبغي النظر الى طبقات المجتمع ، وإجراء التصنيف لأفراده ، من حيث درجة الحماسة للمشروع الإصلاحي الذي يحمله الإمام الحسين (عليه السلام) .

خامسا : استعدادات عسكرية وتحضيرات لوجستية

إن دراسة متأنية لواقع نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) وثورته تنبئ عن مقدرات عسكرية قام بها هو وأنصاره ، وهي تنم عن بعد نظر ، وتكتيك عسكري ، فمن ذلك ، ما حدث في المدينة لما طلبه واليها فقام فجمع مواليه وأهل بيته ثم أقبل يمشي حتى انتهى الى باب الوليد وقال : ((اني أدخل ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا عليَّ الباب بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم)) (٥٠)

وهذا يدل على الاستعدادات المبكرة للإمام الحسين (عليه السلام) لمواجهة المرحلة وإعلان الانتفاضة ورفض أوامر السلطة . من هنا ، يمكن الاستنتاج إن موت معاوية ، وتولي يزيد زمام الخلافة ، وامتناع الإمام الحسين (عليه السلام) عن بيعته ، ومن ثم خروجه من المدينة الى مكة المكرمة رفضاً للسلطة الجديدة ، حفز الكوفيين على مراسلته ، وطلبهم منه المجيء إليهم .

وثمة حادثة تعزز هذا الاتجاه تفيد أنه أثناء توجه الإمام الحسين (عليه السلام) الى العراق إذ انه أقبل حتى مر بالتنعيم ، فلقي بها عيراً قد أقبل بها من اليمن ، بعث بها بحير بن ريسان الحميري الى يزيد بن معاوية – وكان عامله على اليمن – وعلى العير النورس والحلل ينطلق بها الى يزيد فأخذها الحسين ، فانطلق بها (٥١)

وهذا الإجراء فيه دلالة على اتجاه الإمام الحسين (عليه السلام) لأخذ زمام المبادرة وتصعيد الموقف تجاه السلطة القائمة والاستعداد لتولي الشؤون العامة ، وهو ما يؤكد عزم الإمام على الخروج والثورة ، وأنه قد هيأ لها بعض المستلزمات الضرورية .

ومن بين هذه الاستعدادات التي قام بها الإمام الحسين (عليه السلام) لما نزل شراف . فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا ، ثم سار حتى انتصف النهار ، ثم التقى بالحر ومن معه – وهم ألف فارس – في حر الظهيرة ، فقال صلوات الله عليه لفتيانه : ((اسقوا القوم وارووهم من الماء ، ورشفوا الخيل ترشيفاً)).[٥٢]

فقام فتيانه فرشفوا الخيل ترشيفاً ، فقام فتيه وسقوا القوم من الماء حتى ارووهم . واقبلوا يملؤون القصاع والاتوار والطساس من الماء ، ثم يدنونها من الفرس . فإذا عب فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها [٥٣]

وهذه التحضيرات من قبل الإمام الحسين (عليه السلام) تدل على الاستعدادات التي أخذها تحسباً للمفاجآت ، منها تخزين الماء الذي يشكل أهمية كبيرة في أي مواجهة . ونلحظ ، كذلك ، النظرة الإنسانية والعاطفة التي كان يضفيها الإمام حتى على من جاء لمحاربته .

وثمة موقف آخر ، تبدو فيه نظرة الإمام الحسين (عليه السلام) السياسية الثاقبة ، إذ قال زهير بن القين للإمام الحسين (عليه السلام) : ((يا بن رسول الله إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به)) فقال عليه السلام ((ما كنت لأبدأهم بالقتال)) وهو بالتالي ، لا يريد إعطاءهم عذراً لمواجهته .

وفي هذا التصرف دلالة على إن ليس غاية الإمام القتال والحرب ، إذ لربما تنفع المواعظ وتتبدل المعطيات ، وقد تحصل متغيرات ، وما زالت المفاوضات جارية ، إذ لعل بارقة أمل تلوح بالأفق ، أو أن يتغير موقف بعض قادة الجيش . وهذا مطابق لمنهج أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)الذي يوصي أنصاره ((لا تقاتلوهم حت يبدؤوكم ، فأنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم)) [٥٤]

ونجد الإمام علياً (عليه السلام) يوصي مالكاً الأشتر عندما ولاه مصر بقوله : ((ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والاعتذار إليهم مرة بعد مرة)) [٥٥]

ومن ذلك – ما أورده الإمام زين العابدين (عليه السلام) في ليلة عاشوراء : ((وخرج (أي الحسين (عليه السلام)) الى أصحابه ، فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، وأن يكونوا هم بين البيوت فيستقبلون القوم في وجه واحد ، والبيوت عن أيمانهم وشمائلهم ومن ورائهم ، ثم رجع الى مكانه)) [٥٦]

وروي كذلك إن الإمام الحسين (عليه السلام) خرج في جوف الليل من تلك الليلة الى خارج الخيام ، حتى أبعد ، يتفقد التلاع والعقبات .[٥٧]

ومن جانب آخر يتحدث أحد أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) واصفاً جزءاً من المعركة إذ قال : لما أقبلوا نحونا فنظروا الى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي كنا ألهبنا فيه النار من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنا ، إذ أقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة ، فلم يكلمنا حتى مرَّ على أبياتنا ، فنظر الى أبياتنا فإذا هو لا يرى إلا حطباً تلتهب النار فيه .

فقاتلوهم حتى انتصف النهار ، أشد قتال خلقه الله كما وصفه الطبري وقاتلوا جيش الأمويين في وجه واحد ، لتقارب أبنيتهم وخيامهم ، فأمر ابن سعد أن تقوض هذه الخيام عن أيمانهم وشمائلهم ، ليحيطوا بهم ، ويسيطروا عليهم ، فجاءوا بالنار وأحرقوها ، فقال الإمام الحسين (عليه السلام) : ((دعوهم فليحرقوها ، فأنهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها)) وكان كذلك .[٥٨]

سادسا : أصحاب الحسين : مواقف وتضحيات

وصف أنصار الإمام الحسين (عليه السلام) بأوصاف تنم عن انبهار أعدائهم بقدراتهم وبطولاتهم ، إذ صاح عمرو بن الحجاج بالناس : يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ! فرسان المصر ، وقوماً مستميتين ، لا يبرزن لهم منكم أحد ، فأنهم قليل وقلما يبقون ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم ، فقال عمر بن سعد : صدقت ، الرأي ما رأيت ، وأرسل الى الناس يعزم عليهم ألا يبارز رجل منكم رجلاً منهم .

وقد أفرد ابن أبي الحديد في شرحه للخطبة (٥١) من نهج البلاغة بحثاً أسماهُ ((أباة الضيم وأخبارهم)) وذكر فيه طائفة ممن حفل بهم تاريخ الإسلام فاستهله قائلا : ((سيد أهل الإباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً على الدنية ، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، عُرضَ عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل)) [٥٩]

وقال بعض من حضر المعركة مع ابن سعد : ((فو الله ، ما رأيتُ مكثوراً [٦٠] قط قد قتل ولدهُ وأهل بيته وصحبه أربط جأشاً ، ولا أمضى جناناً ، ولا أجرأ مقدماً منه ، ولم أرَ قبله ولا بعده مثله .....))

ويقول أحد الذين شهدوا المعركة في صفوف ابن سعد : ((ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً ، تلقي نفسها على الموت ، ولا تقبل الأمان ولا تقبل المال .....)) [٦١]

إن الخطب والكلمات التي قالها أنصار الإمام الحسين (عليه السلام) كانت تفيض عزةً وشموخاً ، منها لما قال الشمر لزهير بن القين : إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة . فأجابه زهير : ((أفبالموت تخوفني فو الله للموت معه أحب إليَّ من الخلد معك)) ، وقال بشير بن عمر الحضرمي مخاطبا الإمام الحسين (عليه السلام) ((وأسال عنك الركبان وأخذلك مع قلة الأعوان ، لا يكون هذا أبداً)) وقال عابس بن أبي شبيب الشاكري موجها كلامه لأبي الضيم: ((ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء أعز عليَّ من نفسي ودمي لفعلته)). [٦٢]

ولما تقدم لقتال الجيش الأموي ، فقال عمر بن سعد لأعوانه : ((هذا أسد الأسود ، لا يخرجنَّ إليه أحد منكم ..... أرضخوه بالحجارة))

قال نافع بن هلال الجملي للإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء : ((فسر بنا معافى راشداً إن شئت مشرقاً أو مغرباً ، فو الله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرها لقاء ربنا)). [٦٣]

قيل لمحمد بن بشير الحضرمي : أسر ابنك بثغر الري . قال : عند الله احتسبهُ ونفسي . ما كنت أحب أن يؤسر ، ولا أن أبقى بعده . فسمع قوله الحسين ، فقال : ((رحمك الله ، أنت في حلّ من بيعتي . فأعمل في فكاك ابنك . قال : أكلتني السباع حياً إن فارقتكَ . قال : قال فأعطِ ابنك هذه الأثواب البرود يستعين بها في فداء أخيه ، فأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار)). [٦٤]

هذه الحادثة ، سالفة الذكر ، تدل على المعاني السامية التي يحملها الإمام الحسين (عليه السلام) تجاه أنصاره ، حيث اهتم بالأمر ، وطلب من والد الأسير أن يذهب ويسعى في خلاص ولدهِ ، ولما رفض أعطاهُ هذه الأثواب ، الغالية الثمن ، مساهمة منه ، في فكاك ولده .

وثمة موقف آخر تبدو فيه معاني الوفاء والإخلاص لما مشى الإمام الحسين (عليه السلام) لمصرع مسلم بن عوسجة ومعه حبيب بن مظاهر الأسدي ، فدنا منه حبيب ، فقال عزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنة .

فقال له مسلم قولاً ضعيفاً : بشرك الله بالخير .

فقال له حبيب : لولا أعلم أني في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين . قال بل أنا أوصيك بهذا – رحمك الله – وأهوى بيده على الحسين (عليه السلام) أن تموت دونه . [٦٥]

ولما استشهد مسلم بن عوسجة ، فتنادى أصحاب عمر بن سعد مستبشرين بقتلهم إياه ، فقال شبث بن ربعي لمن حوله : ((ثكلتكم أمهاتكم ، أيقتل مثل " مسلم " وتفرحون ؟ لرب له موقف كريم في المسلمين ، رأيته يوم " أذربيجان " وقد قتل ستة من المشركين قبل أن تلتام خيول المسلمين)). [٦٦]

وكان عمرو بن جنادة صبياً يافعاً وله من العمر أحد عشر عاماً ، وقد طلب من الإمام الحسين (عليه السلام) أن يأذن له في التوجه الى ميدان القتال ، فقال له الإمام الحسين (عليه السلام) : ((هذا شاب قتل أبوه ولعل أمه تكره خروجه ، فقال الشاب : " إن أمي هي التي أمرتني ")). [٦٧]

ويروي الطبري تفاصيل مقتل أنصار الإمام الحسين (عليه السلام) ، بعد أن قدموا صوراً مضيئة في التضحية والفداء وبعد أن قتل من أصحاب الحسين جماعة ، وكانوا إذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين النقص فيهم لقلتهم ، ويقتل من أصحاب ابن سعد العشرة والأكثر ، فلا يظهر عليهم لكثرتهم . [٦٨]

وهو ما يدل على استبسال أنصار الإمام الحسين (عليه السلام) واستماتتهم ، وعلى الرغم من كون هذه المعركة غير متكافئة ، إلا أنه سقط من جند ابن سعد عدد كبير من القتلى .

سابعا : معركة الطف ، ردود الأفعال والنتائج

إن ثورة الأمام الحسين (عليه السلام) كانت ملهمة لكل الأحرار والثائرين بوجه الظلم والاستبداد وأدت الى كثيراً من ردات الفعل ، ولعل أولى ذلك أنه لولا ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) لما قامت حركة مناهضة للحكم الأموي .

وحتى خلال المعركة ، يورد الدينوري إن ابن زياد كان إذا وجه الرجال الى قتال الحسين في الجمع الكثير، يصلون الى كربلاء ولم يبق منهم إلا القليل ، كانوا يكرهون قتال الحسين ، فيرتدعون ، ويتخلفون . فبعث ابن زياد سويد بن عبد الرحمن المنقري في خيل الى الكوفة ، وأمره أن يطوف بها ، فمن وجده قد تخلف أتاه به ، فبينا هو يطوف في أحياء الكوفة إذ وجد رجلا من أهل الشام قد كان قدم الكوفة في طلب ميراث له ، فأرسل به الى ابن زياد ، فأمر به ، وضربت عنقه ، فلما رأى الناس ذلك خرجوا . [٦٩]. وكان رجل يُبعث في ألف فلا يصل إلا في ثلاثمائة أو أربعمائة وأقل من ذلك كراهة منهم لهذا الوجه. [٧٠]

وقد وصل هذا الأمر الى بعض القادة ومنهم الحر بن يزيد الرياحي الذي أرسل لمحاربة الإمام الحسين (عليه السلام) ، يقول له : ((حتى أكتب الى ابن زياد ، فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن ابتلى بشيء من أمرك)) ثم ليلتحق بالحسين أخيراً .

إن ردود الأفعال على ما ارتكبه جند عبيد الله بن زياد امتدت حتى الى أخيه الذي قال : ((والله لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة الى يوم القيامة وإن حسيناً لم يقتل)) . (٧١)

وذكر ابن حجر في ترجمة عمر بن سعد ..... قال : ((مقته الناس لكونه أميراً على الجيش الذي قتل الحسين بن علي (عليه السلام))) .(٧٢)

وكان ممن حضر الواقعة رجل من بكر بن وائل ، يقال له (جابر) ، فلما رأى ما صَنعَ ابن زياد ، قال في نفسه ، لله عليَّ أن لا أصيب عشرة من المسلمين خرجوا على ابن زياد إلا خرجتُ معهم ، فلما طلب المختار بثأر الإمام الحسين (عليه السلام) ، والتقى العسكران برز هذا الرجل وهو يقول :

وكل عيش قد أراه فاسداً

إلا مقام الرمح في ظل الفرس (٧٣)

وانتقلت آثار مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) حتى الى داخل بيوت قتلته ، ومن ذلك ما قاله هشام : فحدثني عن النوار بنت مالك ، قالت : اقبل خولي برأس الحسين فوضعه تحت إجانه في الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى الى فراشه ، فقلتُ له : ما الخبر ما عندك ؟

قال : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك في الدار . قالت : فقلت : ويلك جاء الناس بالذهب والفضة وجئت برأس ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً .

وهذا فيه دلالة على مدى السخط جراء ارتكاب هذه الجريمة ، حتى إن قسماً من النساء تأثرن بما جرى ، فأبدين بعض المواقف المناهضة لقتلة الإمام الحسين (عليه السلام) .

وحتى إن قتل الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه كان عامل تفرقة في جيش ابن سعد ، الذي كان أغلبه يتجنب مجابهة الحسين (عليه السلام) ، وقد أورد المؤرخون وصفاً للدقائق الأخيرة من حياة الإمام الحسين (عليه السلام) ((لقد مكث طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ، يحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء)) ومكث الحسين طويلا من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ، وكره أن يتولى قتله وعظيم أثمه عليه)) (٧٤)

الخاتمة :

بعد دراستنا لثورة الإمام الحسين (عليه السلام) من جانب أبعادها السياسية والعسكرية ، واعتمادها لترتيبات واستعدادات لوجستية ، وتنبه قائدها لضرورة اتخاذ الاحتياطات أثناء مسيره ومكوثه في كربلاء ، وتفقده لجبهته الداخلية وخطبه المؤثرة لهو مؤشر على التحضيرات التي أعدت لهذه الحركة .

وثمة استنتاج توصلنا إليه ، في هذه الدراسة ، يفيد أن اختيار الإمام الحسين (عليه السلام) للكوفة ، أتى بعد بحث مستفيض وتأنٍ في أحوال العالم الإسلامي ، إذ ليس في الحجاز ما يعزز حركة المعارضة نظراً لفقدانه المال والرجال ، والأمر نفسه ينطبق على البصرة التي لم يكن تحركها على مستوى الأحداث ، لذلك انطلق الإمام صوب الكوفة بسبب أهمية موقعها ومولاة أهلها ورسائل أبنائها التي تدعوه إليها .

إن رسالة مسلم بن عقيل التي كتبها للإمام الحسين (عليه السلام) بعد مكوثه ما يزيد على الشهر في الكوفة ، جعلت الإمام يسرع في الإقدام والتحرك بعد اطمئنانه من إخلاص مناصريه وشيعته هناك .

ولكن الذي غيّر موازين القوى وقلب الأوضاع في غير صالح الإمام الحسين (عليه السلام) ، كان وصول عبيد الله بن زياد المفاجئ للكوفة وسرعة إعلانه الأحكام العرفية وبثه الرعب في صفوف أبنائها كان له أعمق الأثر في دعم السلطة الأموية ومن ثم تمكنها من محاصرة الحسين (عليه السلام) ، القادم من الحجاز ، وصدّه عن دخول الكوفة وبعدها قتله في كربلاء .

الهـوامـــش :

١- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٨٢ .
٢- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ١٩٦٢ ، ج ٢٤ ، ص ٥١ .
٣- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٨ .
٤- ابن كثير ، البداية والنهاية ، دار إحياء التراث العربـــي ، بيروت ، ج ٨ ، ص ١٢٦ .
٥- ابن كثير ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١٤٤ .
٦- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
٧- أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ١٢٤ .
٨- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٦
٩- مقتل الحسين للخوارزمي ، ص ١٨٦ .
١٠- ابن كثير البداية والنهاية ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١٨٦ .
١١- ابن أعثم ، الفتـوح ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٢ ، ج ٥ ، ص ٣٥ .
١٢- ابن كثير ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١٦٢ .
١٣- وصل الإمام الحسين (عليه السلام) الى مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان ، وأقام عليه السلام باقي شعبان وشهر رمضان وشوال وذي القعدة ، وثمان ليالي من ذي الحجة . انظر تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ٢٦١ .
١٤- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٩٩٨ ، ج ٣ ، ص ٣٥١ .
١٥- ابن قتيبة ، الإمـامـة والسياسة ، انتشارات الشريف الرضي ، قـم إيران ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .
١٦- الدينوري ، الأخبار الطوال ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٠٣ .
١٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٣٣ .
١٨- الشيخ المجلسي ، بحار الأنوار ، ج ٤٤ ، ص ٣٣٤ .
١٩- الشيخ المفيد ، الإرشاد فـي معرفة حجج الله علـى العبـاد ، دار المفيد ، بيروت ١٩٩٣ ، ج ٢ ، ص ٣٩ .
٢٠- ابن كثير ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

٢١- الأخبار الطوال ، ص ٢٠٥ .
٢٢- تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .
٢٣- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، ج ٤ ، ص ١٥ .
٢٤- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٠ .
٢٥- الملهوف ، ابن طاووس ، ص ١٦ .
٢٦- الشيخ المفيد ، الإرشاد ، مصدر سابق ، ص ٢١٠ .
٢٧- قال عليه السلام لمن يسأله ((ما أعجلك عن الحج ؟ لو لم أعجل لأخذت)) انظر تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٩٦
٢٨- مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .
٢٩- ابن كثير البداية والنهاية ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١٦٩ .
٣٠- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .
٣١- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ .
٣٢- ابن شهر اشوب ، مناقب آل أبي طالب ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٣٧٦ هـ ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .
٣٣- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٥
٣٤- تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٩٦٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .
٣٥- مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٤٦٣ .
٣٦- مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .
٣٧- ابن اعثم ، الفتوح ، مصدر سابق ، ج ٥ ، ص ٨٦ .
٣٨- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٦ .
٣٩- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ .
٤٠- الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .
٤١- الطبقات ، دار صادر ، بيروت ج ١ ، ص ٤٦٦ .
٤٢- المناظر ، أشراف الأرض لأنه ينظر منها .
٤٣- المسالح : قوم في عدة بموضع رصد قد وكلوا به بإزاء ثغر واحد .
٤٤- أنساب الأشراف ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .
٤٥- البلاذري ، أنساب الأشراف ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٣٩٤ هـ ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ .
٤٦- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .
٤٧- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧
٤٨- الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٥
٤٩- الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤
٥٠- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٢١٤ .
٥١- البداية النهاية ، ج ٨ ، ص ١٦٦ .
٥٢- تاريخ الطبري ، مصدر سابق .
٥٣- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .
٥٤- ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .
٥٥- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٠
٥٦- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .
٥٧- التلاع : جمع تلعة ، هي ما علا من الأرض بنحو يسير كالرابية ، والعقبة ، وهي المرقى الصعب في طريق الجبال
٥٨- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .
٥٩- شرح نهج البلاغة ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .
٦٠- تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ ؛ المكثور : المغلوب على أمره الذي تكاثر عليه الناس فقهروه .
٦١- ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .
٦٢- التستري ، قاموس الرجال ، طهران ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ٢٠٣ .
٦٣- ابن اعثم ، الفتــوح ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .
٦٤- ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥ ، ج ١٤ ، ص ١٨٢.
٦٥- تلتام : أي تجتمع ، التيام القوم على كذا بمعنى اجتماعهم عليه ، تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ .
٦٦- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٧٣ .
٦٧- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٤٣٠
٦٨- الدينوري ، الأخبار الطوال ، مصدر سابق ، ص ٢٥٥ .

٦٩- الدينوري ، مصدر سابق ، ص ٢٥٤ .
٧٠- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ .
٧١- لسان الميزان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت٢٠٠١ ، ج٨ ، ص ٥٩٠
٧٢- ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مصدر سابق ، ج ٣٧ ، ص ٤٦٠ .
٧٣- تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٣٤٦
٧٤- تاريخ الطبري ، مصدر نفسه .

المراجـــــــع :

١- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد .
٢- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ١٩٦٢ .
٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ، دار إحياء التراث العربـــي ، بيروت .
٤- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٥- البلاذري ، أنساب الأشراف ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٣٩٤ هـ .
٦- مقتل الحسين للخوارزمي .
٧- ابن اعثم ، الفتـوح ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٢.
٨- ابن قتيبة ، الإمـامـة والسياسة ، انتشارات الشريف الرضي ، قم إيران .
٩- الدينوري ، الأخبار الطوال ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
١٠- الشيخ المجلسي ، بحار الأنوار .
١١- الشيخ المفيد ، الإرشاد فـي معرفة حجج الله علـى العبـاد ، دار المفيد ، بيروت ١٩٩٣ .
١٢- تاريخ الطبري .
١٣- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد .
١٤- الملهوف ، ابن طاووس .
١٥- ابن شهر اشوب ، مناقب آل أبي طالب ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٣٧٦ هـ .
١٦- تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ١٩٦٩ .
١٧- ابن سعد ، الطبقات ، دار صادر ، بيروت .
١٨- التستري ، قاموس الرجال ، طهران ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ٢٠٣ .
١٩- ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥ .
٢٠- لسان الميزان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت٢٠٠١ ، ج٨ ، ص ٥٩٠.